

مشروع «في الفكر النهضوي الإسلامي» ندوة بمعرض القاهرة الدولي للكتاب

■ محمد عويس

استضاف معرض القاهرة الدولي للكتاب - والذي عُقد في الفترة من 22 يناير وحتى 7 فبراير 2012 - ندوة بعنوان «في الفكر النهضوي الإسلامي» بجناح مكتبة الإسكندرية، شارك فيها كل من: الدكتور رضوان السيد من لبنان، والدكتور سعيد العلوي المفكر المغربي، والدكتور محمد عمارة المفكر الإسلامي، والدكتور محمد كمال الدين إمام؛ أستاذ الشريعة بكلية الحقوق بجامعة الإسكندرية، وأدارها د. إسماعيل سراج الدين مدير المكتبة، وذلك بهدف التعريف بالمشروع الذي تقوم به المكتبة، والخاص بإعادة نشر مختارات من التراث الإسلامي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين - التاسع عشر والعشرين الميلاديين - وتقديم نماذج من الكتب التي انتهى المشروع من إصدارها.

■ كاتب وباحث من مصر.



استهل د. إسماعيل سراج الدين مدير مكتبة الإسكندرية فاعليات الندوة بالإشارة إلى أن المشروع يهدف إلى تقديم مختارات من تراث الفكر النهضوي الإسلامي، والتعريف بأهم كتابات التجديد والنهضة وأعلامها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (19 - 20م)، والتوجه إلى قطاع عريض من طلاب الجامعات والمعاهد العليا من أجل تعريف أفضل بأفكار هؤلاء الأعلام وأعمالهم. ولا يُعد المشروع مجرد استعراض لتاريخ مضي، وإنما هو تأكيد على هوية قائمة، وإحياء لقيم المواطنة، والحفاظ على الذات، والتواصل البناء مع الآخرين.

وقد صدر عنه ما يقرب من 20 كتاباً، يُجدد تراث عصر النهضة الإسلامي ومفكري ذلك العصر؛ من أمثال محمد عبده وعلال الفاسي وخير الدين التونسي وشكيب أرسلان، وغيرهم ممن أثاروا قضايا مازالت تناقش حتى الآن، ومن هذه الكتب «مقاصد الشريعة الإسلامية» لمؤلفه الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، و«العودة إلى الذات» لمؤلفه علي شريعتي، «الحياة الروحية في الإسلام» لمؤلفه محمد مصطفى حلمي، و«الإسلام دين الفطرة والحرية» لمؤلفه عبد العزيز جاويش، و«المرأة والعمل» لمؤلفته نبوية موسى، و«تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» لمؤلفه مصطفى عبد الرازق، و«نهضة الأمة وحياتها» لمؤلفه طنطاوي جوهري، و«دفاع عن الشريعة» لمؤلفه علال الفاسي، و«طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» لمؤلفه عبد الرحمن الكواكبي، و«مناهج الألباب المصرية في مباحج الآداب العصرية» لمؤلفه رفاعة رافع الطهطاوي، و«امراتنا في الشريعة والمجتمع» لمؤلفه الطاهر الحداد؛ حيث قام باحثون مختصون - إلى جانب إعادة إصدار آخر طبعة للكتاب نُشرت في حياة المؤلف - بإعداد تقديم لكل كتاب يُنشر معه، ويتضمن تعريفاً به وبمؤلفه وأهم ملامح مشروعه الفكري التجديدي.

وأضاف أن المشروع أُطلق عليه «إعادة إصدار كُتب التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين / التاسع عشر والعشرين الميلاديين»، ونبعت فكرته من الرؤية التي تتبناها المكتبة بشأن ضرورة المحافظة على التراث الفكري والعلمي في مختلف مجالات المعرفة، والإسهام في نقل هذا التراث للأجيال المتعاقبة؛ تأكيداً لأهمية التواصل بين أجيال الأمة عبر تاريخها الحضاري، وأضاف أن السبب الرئيس لاختيار القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين هو وجود انطباع سائد غير صحيح؛ وهو أن الإسهامات الكبيرة التي قام بها

نبعت فكرة المشروع من الرؤية التي تتبناها المكتبة بشأن ضرورة المحافظة على التراث الفكري والعلمي في مختلف مجالات المعرفة

المفكرون والعلماء المسلمون قد توقفت عند فترات تاريخية قديمة، ولم تتجاوزها، في حين أن استعراض وثائق هذه المرحلة يشير إلى غير ذلك، ويؤكد على أن عطاء المفكرين المسلمين - وإن مرّ بمدّ وجزرٍ - قد تواصل عبر الأحقاب الزمنية المختلفة، بما في ذلك الحقبة الحديثة، والتي تشمل القرنين الأخيرين.

كما أوضح أن هذا المشروع يسعى للجمع بين الإحياء، والتجديد، والإبداع، والتواصل مع الآخر، وليس في الاهتمام بهذا التراث إشارة إلى رفض الجديد الوافد علينا؛ بل علينا التفاعل معه واختيار ما يناسبنا منه، فتزداد حياتنا الثقافية ثراءً، وتتجدد أفكارنا بهذا التفاعل البنّاء بين القديم والجديد، بين الموروث والوافد فتُنتج الأجيال الجديدة عطاءها الجديد، إسهاماً في التراث الإنساني المشترك، بكل ما فيه من تنوع الهويات وتعددتها. ونوّه سراج الدين إلى أن مكتبة الإسكندرية تهدف من هذا المشروع أيضاً إلى الإسهام في تنقية صورة الإسلام من كثير من التشوهات التي ألصقت به، وبيان زيف كثير من الاتهامات التي تنسب زوراً



إلى المسلمين، من خلال ترجمة هذه المختارات إلى الإنجليزية والفرنسية، ومن ثمّ توزيعها على مراكز البحث والجامعات ومؤسسات صناعة الرأي في مختلف أنحاء العالم، وقبل ذلك إتاحتها لشباب المسلمين من غير الناطقين بالعربية.

وقال المفكر الإسلامي الدكتور محمد عمارة: إن هذا المشروع ليس مجرد نشر لكتب التراث؛ بل هو اختيارٌ محمودٌ لكتب تمثل الفكر النهضوي الذي نسعى إليه، ولفت إلى أن الثورات التي تشهدها الأمة العربية هدفها هو السعي نحو نهضة عالم العروبة والإسلام، كما أن الخيارات الغربية قد أفلست داخل وخارج العالم الغربي، وعندما نتحدث عن العالم الغربي فإنه ليس شيئاً واحداً؛ ولكن لا بد من التمييز بين كل من الحضارة الغربية، والعلوم الغربية، والإنسان الغربي، فالحضارة الغربية بلغت من العبقورية مكانة يجب أن نسعى إلى بلوغها، والاستفادة منها بمختلف السبل لتحقيق التقدم لعالمنا العربي والإسلامي، وأما العلوم فلا ينكر إلا جاحد أننا تتلمذنا عليهم فيها، وثمارها شتى في مختلف مجال الحياة، ونأتي إلى الإنسان الغربي فتجده يفتح عقله، ويُفسح المجال لقلمه في قضايانا حين نُحسن تقديمها وعرضها بصورة واضحة وصحيحة. إن مشكلتنا ليست مع هذه الأطراف؛ بل مع مؤسسات الهيمنة التي جاءت إلى الشرق لتحتله وتغتصب ثرواته، وذلك يمثل صراعاً ما زال قائماً معه منذ 10 قرون. وأضاف عمارة أن الجماهير العربية تأكدت وآمنت أنه لا يوجد خيار نهضوي إلا بالعودة إلى المرجعية الإسلامية: من هنا تأتي أهمية هذا المشروع الذي تنهض به مكتبة الإسكندرية، والذي يتم بإنجازه تحقيق أحلام وطموحات هؤلاء الأعلام الذين دعوا وسعوا إلى نهضة عالمنا العربي في مواجهة الهيمنة، وهذه المؤلفات تساعدنا على الوقوف في مواجهة الهيمنة التي تحرس تخلفنا. أيضاً هذا المشروع لا يختلف عليه اثنان في أنه يقدم جدول أعمال فكرياً لثورات الربيع العربي، كما أن هذه الإصدارات تُلفت النظر

إلى أن اللحظات التي يعيشها العالم العربي والإسلامي تمثل طموحات
 لنهضة هذه الأمة، التي عُيبت لقرنين منذ جاء نابليون بونابرت ليطمس
 إنجازاتها. لذا تتطلب هذه اللحظات من الثوار السعي نحو عودة أمتنا إلى
 الريادة والإمامة بين الشعوب، أيضاً هذا المشروع الفكري النهضوي يمثل
 رسالة كبرى ذات معنى كبير، وكأنه كان إرهاباً وتبشيراً لثورات الربيع
 العربي. وأكد عمارة على أن هذا المشروع يتميز عن المشروعين السابقين
 لرفاعة الطهطاوي ومحمد عبده، اللذين كانا لتعريف الأمة بذاتها وبتراثها.
 لكن هذا المشروع الذي نحن أمامه يُترجم عيون الفكر الإسلامي النهضوي
 إلى اللغات الأخرى، فيصدر إلى الآخر.. وليس فقط يُعرفنا نحن بذاتنا؛ أي:
 أنه يُطلع العالم - الذي أساء الظن بإسلامنا، والذي سلط كل الأضواء على
 بعض «العورات الفكرية» لقلّة قليلة من أهل الغلو - على حقيقة الإسلام،
 ومعالم المشروع النهضوي لأمة الإسلام، وأضاف أن هذا المشروع بحاجة
 إلى إشاعة الحديث عنه ونشره وإبرازه للمجتمع العربي كافة.

فيما أشار المفكر الدكتور رضوان السيد إلى العلاقة غير الصحية بين
 العرب وتراثهم الحضاري القديم والحديث، وانقسام المثقفين إلى فئتين:
 فئة ترى أن الدين هو التعبّد، ولا همّ لها سوى استيعاب هذا الدين، وفئة
 أخرى ترى أن الدين هو العائق أمام التقدم. واستطرد متسائلاً عن كيفية
 تعامل المستشرقين، والعرب، والترك، والإيرانيين مع التراث الإسلامي
 بشكل إيجابي؟ وكيف أنهم استطاعوا الكتابة بطريقة موضوعية عن التراث
 الإسلامي كأنه جزء من تراثهم بغض النظر عن حاضرهم، وهو ما عجز
 عنه العرب في القرن العشرين؛ حيث لم يكتبوا موسوعة إسلامية، وعجزوا
 عن كتابة تاريخهم القومي لانقسام المثقفين العرب أنفسهم، ولفت إلى
 أن أصحاب الكُتب - التي أنجزها مشروع مكتبة الإسكندرية - على الرغم
 من اختلاف آرائهم واتجاهاتهم - ما بين الإصلاحي والسلفي - اتفقوا على
 إنفاق جهدهم للخروج مما عدّوه مأزقاً يُحيط بالأمة، واشتد بهم الوعي في



أواسط القرن التاسع عشر، لذا عندما تقوم المكتبة بذلك فهي تتبنى فكرة تُدرس في سياقها، وتشتغل عليها الأجيال الجديدة، وهذا أمر عظيم، كما أنها خطوة جادة لإعادة قراءة تراث يشغل من 100 إلى 150 عاماً، ويُعد إسهاماً في تصحيح علاقتنا بتراثنا القديم والجديد التي لم تكن صحية فيما مضى. وبرأي السيد أن هذا المشروع يمثل محاولة تهدف لكتابة تاريخ أمتنا الثقافي قديماً وحديثاً، والتي تولى العالم كتابته إلا نحن، ولفت إلى أن محاولة أحمد أمين تمثل آخر محاولة لكتابة تاريخنا، وعلى الرغم من تواضعها فإنها تُعد خطوة مهمة، وذكر أيضاً أننا في أشد الحاجة إلى تاريخ ثقافي كلاسيكي؛ حيث لم يجد في هذا الشأن سوى كتابين هما: (الفكر العربي في عصر النهضة) تأليف البرت حوراني، والكتاب الثاني (أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العصر الحديث) تأليف فهمي جدعان، وذكر أيضاً أنه ليس هناك تاريخ ثقافي في السياقات والأطر الحضارية والسياسية والعربية والإسلامية في القرنين التاسع عشر، والعشرين.

وأشار المغربي د. سعيد العلوي إلى أن مصطلح النهضة الثانية ورد على لسان عدد من الباحثين والمفكرين تعبيراً عن الأمل في تحقيق نقلة نوعية تميزاً لها عن النهضة العربية الأولى، التي امتدت منذ منتصف القرن التاسع عشر، وتوقفت عند خمسينيات القرن العشرين، ولفت إلى أن الخطاب العربي في عصر النهضة تميز باستخدام جملة مفاهيم راهنة بالنسبة لنا الآن، منها التساؤل عن: العلاقة بين الدين والسياسة، مفهوم الإصلاح. وأن قراءة تاريخ البشرية بصفة عامة مثال: نموذج حركة النهضة الأوروبية (في القرنين 15 و16م) حيث مهدت لحركة الحداثة، نموذج النهضة اليابانية (القرنين 18 و19م)، نموذج الحركة العربية الإسلامية، وهناك نقاط مشتركة بين تلك النماذج منها: وجوب العودة إلى الأصول، فلا بد من وجود مشروع ثقافي كبير، يقوم بإحياء التراث تقوم به دولة،

أو مجموعة من الأفراد، مؤسسات المجتمع المدني، أو يتمّ التداخل بينها. ويضيف العلوي: إننا اليوم نعيش مقدمة هذه النهضة في الوطن العربي مما يدفعنا إلى طرح جملة من الأسئلة منها: ما الفرق بين الحركة النهضوية الآن وسابقتها من الحركات النهضوية العربية؟ ما هي مكانة الدين في النهضة العربية الثانية؟ ما طبيعة إشكالية الإسلام والسياسة حالياً؟ إذن وبرأي العلوي نحن أمام طرح لقضية الدولة المدنية ومكوناتها، وكيف يمكن أن تكون السياسة مجالاً للصراع السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي؟ وهل ذلك الصراع يرتبط بالديمقراطيات؟ إن الحركة النهضوية العربية تفتقر

إن هذا المشروع يمثل محاولة تهدف لكتابة تاريخ أمتنا الثقافي قديماً وحديثاً، والتي تولى العالم كتابته إلا نحن

إلى مشروع واضح ينهض به المجتمع المدني إلى جانب الدولة. وبخصوص مشروع مكتبة الإسكندرية «في الفكر النهضوي الإسلامي» قال العلوي: «اعتبره من ضمن الإسهام في المشروع الثقافي لحركة الثقافة العربية الأخيرة، ومن النصوص المؤسسة للنهضة العربية». وقرر أن من شأن قراءة الفكر العربي الإسلامي في عصر

النهضة - والفكر السلفي الكلاسيكي بعض من ذلك الفكر - أن يمدنا بأدوات جديدة في النظر إلى الواقع العربي الإسلامي وأن يدفع به في اتجاه التطور الإيجابي، وفي التمكين من فتح آفاق الحوار المثمر في عالم لا يكون ممكناً ولا معقولاً إلا متى كان التعدد الثقافي والحوار الإيجابي مجاله، والموجه فيه في الوقت ذاته.

بينما أوضح الدكتور محمد كمال إمام أن ولادة مشروع مكتبة الإسكندرية جاء قبل سنوات من ثورات الربيع العربي والذي تُعد مؤلفاته بمثابة الأعمال التأسيسية لها، كما أن هذا المشروع يمثل مفاجأة في كونه صدر من المكتبة، والتي كان يُظن بها أن يكون نشاطها قاصراً على



الجانب الآخر من البحر المتوسط. وأشار إلى أن إعادة إصدار كتب التراث النهضوي الإسلامي الحديث في القرنين الأخيرين يُعد جزءاً من جهود التقدم نحو المستقبل لأمة لها تاريخ، كان الكتاب فيه ذاكرتها المستوعبة ورصيدها الثقافي ومخزونها العقلي الأصيل، وهو رصيد تواصلت خطواته الواثقة منذ حركة الترجمة في عصر المأمون إلى الآن.

وأضاف إمام: لقد استهدف هذا العمل اختيار «الكتاب المشروع»؛ أي: الكتاب الذي يُمثل المشروع النهضوي لكل عَلمٍ من هؤلاء الأعلام بمقدمة جديدة لا تخرج بالكتاب والكتاب عن سياقه التاريخي؛ إنها قراءة له من داخل فكر المؤلف، ومن داخل عصره، ومقدمة تعرض بإيجاز ترجمة حياته وسيرة قلمه ومؤلفاته، وترصد ردود الأفعال الفكرية حول الكتاب قبولاً ورفضاً، وتأيداً وتفنيداً، بما يُبرز القضايا الفكرية التي أفرزها الكتاب، وأشار إلى أن العقل المسلم مُنذ اللحظة الأولى عقل مفتوح يأخذ ويعطي، يُرسل ويستقبل، وتبقى غايته الرئيسة الخير العام لكل إنسان بما هو إنسان.

وقد ذهب المشاركون في الندوة إلى أن كل الكتب تنتمي إلى الفكر النهضوي الذي بلور إجراءات ذات طابع جدلي، وتبنت فكره التقدم، وضرورة نشر البحوث والدوريات المتعلقة بهذه القضايا إلى جانب الكتب التراثية، وإلى جانب كتب محمد عبده والكواكبي يتيح المشروع الفرصة لكتب لم تنشر حديثاً وغير متاحة للباحثين. واتفق المشاركون على أن المعايير الأساسية التي يجب أن يؤخذ بها هي معايير الحرية والنزاهة والاختلاف، وعلى ضرورة تنوع المشروع الفكري، وتبني المراكز البحثية الكبيرة ودعمها للمشروع ومساعدة الباحثين. كما نبّه المشاركون إلى ضرورة الاستفادة من أساليب العرض الحديثة ووسائل الاتصال في تنمية وتطوير هذا المشروع الفكري، من خلال عقد مؤتمرات على الإنترنت، سواء مؤتمرات مرئية أم مكتوبة.